

عنوان المقال: التواصل غير اللغوي في القصص القرآني

الطالبة: نزيهة رويحة

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات

الملخص:

Résumé :

L'être humains est toujours intéressé aux langue depuis se création même depuis que dieu a appris a Adam tous les pré-noms se savoir et utilise dans les relation entre les peuples et pour cela les linguistiques on donner une importance capitale a ca et pouvoir arriver a la nature de ces relations comme nous le savons le relationnel et deux types : le 1 travers la langue et le 2 sans elle l'effet de ce dernier est cinq (5) fois plus fort que les traces laisser par les mots .

La plus part des buts sont toujours atteint de la part de l'émetteur avec les signes et les gestes, si l'homme peu ne pas parle, mais il ne pure pas arrêter de faire des gestes et s'exprimer avec d'autre manière (mouvement des mains, du corps et les expression du visage) .

لقد اهتم الإنسان باللغة اهتماما كبيرا منذ وجوده ولحظة ميلاده اللغوي عندما علم الله عز وجل آدم الأسماء كلها ، وما هذا التعليم إلا ليتواصل الناس فيما بينهم ؛ لذا أولى الباحثون اللسانيون موضوع التواصل الأهمية البالغة سعيا منهم إلى الوصول إلى حقيقته وبيان كنهه وكما هو معلوم فالتواصل نوعان لغوي وغير لغوي هذا الأخير الذي لا يمكن تحاشيه أو الهروب منه، وهو أقوى بخمس مرات من ذلك التأثير الذي تتركه الكلمات ، فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن نسبة كبيرة من الأهداف التي يطمح المرسل إلى تحقيقها يصل إليها عن طريق الحركات والإيماءات ؛ فإذا استطاع الإنسان أن يكف عن الكلام فإنه لا يستطيع أن يكف عن الحركة وعن التعبير عن ذاته بوسائل أخرى كحركات الجسم واليدين وتعبيرات الوجه وهذا ما نريد الكشف عنه في القصص القرآني والذي غطت فيه هذه العلامات غير اللغوية مساحة لا بأس بها

مقالة بعنوان: (التواصل غير اللغوي في القصص القرآني)

تمهيد:

يمتلك الإنسان وسائل غير لغوية تقوم بوظيفة التواصل مثل اللغة تماما، وتتمثل هذه الوسائل في وجود أنظمة من العلامات غير لغوية تخضع لاتفاق الجماعة وتوضعها، وتعمل متضافرة تارة أو مستقلة تارة أخرى من خلال السياق الثقافي لكل مجتمع. كما تعمل هذه الأنظمة من خلال الحواس - التي تحدد بدورها نظام العلامات ووظيفته وتنقسم هذه الوسائل غير اللفظية إلى أنظمة دلالية عضوية، تتخذ من جسم الإنسان علامات؛ لأن الإنسان يستخدم أعضاء جسمه، بل جسمه كله في التواصل مع الآخرين، إنه يتكلم بجسمه كما يتكلم بلسانه، وتحمل حركاته وإشاراته دلالات مفهومة مثل كلمات اللغة تماما.

والتواصل عن طريق حركات الجسم هو تواصل غير لغوي وهو "الرسائل التواصلية الموجودة في الكون الذي نعيشه ونتلقاه عبر حواسنا الخمس، ويتم تداولها عبر قنوات متعددة، وتشمل كل الرسائل التواصلية حتى تلك التي لا تتداخل مع اللغة اللفظية، والتي تعتبر من ضمن بنيتها، وتتجلى وسائل التواصل غير اللفظي عبر سلوك العين، وتغيرات الوجه، والإيماءات، وحركات الجسد وهيئة الجسم وأوضاعه"⁽¹⁾.

وللتواصل غير اللغوي العديد من التسميات كالاتصال الجسدي والسلوك الحركي، واللغة الصامتة ونحوها.

وبجملة الإشارات والعلامات يتمكن الإنسان من الإفصاح، و تمثل كل من حركات الجسم وأعضائه وحركات الجوارح أدوات مساعدة توصل المعاني للآخرين، وتؤثر فيهم بشكل كبير ، ولعل أهميتها تكمن أيضا في قدرتها على ترجمة ما يدور في خلجات النفس وإظهاره على أعضاء الجسم الخارجية، وهي بذلك تشكل عاملا مهما في عملية التواصل البشري. ولقد تضمن القرآن الكريم هذه الإشارات، ولعل أهمها قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾⁽²⁾، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾⁽³⁾.

فاستخدام الإشارة في الآية الأولى والرمز في الآية الثانية يمثل دعوة إلى استخدام أعضاء الجسم في التواصل، كما يعد دليلا على وجود التواصل في القرآن من غير كلام.

واستنادا إلى قول الجاحظ: "أنه يمكن أن ينظر إلى الإشارة أو العلامة (Signe) في الخطاب القرآني على أنها هيئة أو نصبة"⁽⁴⁾. سنحاول التعرض إلى التواصل غير اللغوي في قصص القرآن الكريم بحيث سنرصد بعضا من آيات القصص الدالة على هيئات جسمية عرضها التواصل بين الناس. ومن كلام الجاحظ نستشف أن الإشارة اصطلاح عام تدخل في حوزته الإشارات والإيماءات، والحركات الجسمية وتعبيرات الوجه والعينين، وهذا النوع من التواصل -غير اللغوي- أمر لا يمكن تحاشيه أو الهروب منه، وهو من الوسائل التي تحقق الكثير من التجاوب بين الناس، وهو أقوى بخمس مرات من ذلك التأثير الذي تتركه الكلمات، "فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن ما يقارب من 55% من الأهداف التي يطمح المرسل إلى تحقيقها يصل إليها على طريق الإيماءات والحركات، بينما تحقق باقي العناصر النسبة المتبقية أي بنسبة 45%"⁽⁵⁾.

فإذا استطاع الإنسان أن يكف عن الكلام، فإنه لا يستطيع أن يكف عن الحركة وعن التعبير عن ذاته، بوسائل أخرى كحركات الجسم واليدين، وتعبيرات الوجه، وهذا ما سنرصده في سور القصص القرآني.

1. إشارات العين:

يقوم جسم الإنسان بدور مهم في التواصل بين المتخاطبين، وإن فهم كل منا لآخر يتأثر إلى حد كبير بهيئة الجسم وإشاراته وحركاته. وتلعب العين دورا كبيرا جدا في الإفصاح عما يدور في نفس صاحبها، والعين هي حاسة البصر لدى الإنسان، وهي كالمراة ترى ما يقع عليها، ويفهم الإنسان بها ما يراه، وهي تختزل جماع وجه الإنسان، وتكشف لنا عن هويته الحقيقية⁽⁶⁾، وللعين لغة خاصة بها لذا أخذت اهتماما كبيرا، ونالت حظا وفيرا عبر التاريخ البشري من خلال اهتمام البشر بها، فهي من أهم أعضاء الجسم جمالية ووظيفة، وبعلامات بصرية يستطيع المرء أن يعبر عن خلجاته.

لقد أخذت لغة العيون قسطا كبيرا من آيات القصص القرآني، كما أخذت العديد من الدلالات والمعاني، فكثيرة هي الآيات الراصدة لحركات العين إما بلفظ العين نفسه، وإما بألفاظ دالة على وظائفها مثل النظر والبصر.

وللعين وإشاراتها وحركاتها معان كثيرة، فقد تكون باكية وقد تكون مزدرية، وقد تكون خائفة، وقد تكون راغبة. فمن نماذج العين الباكية الحزينة في سور القصص القرآني قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾⁽⁷⁾.

في هذه الآية الكريمة علامة غير لغوية -بادية على الوجه- إنها قوله تعالى: "أعينهم تفيض من الدمع"، وهي دالة على شدة الحزن من قبل هؤلاء الذين فاضت أعينهم دمعا لعدم قدرتهم على المشاركة في الجهاد في سبيل الله.

لقد نابت هذه الدموع عن الكلام، وبمجرد رؤيتها لها نتيقن أن صاحبها إما في شدة الحزن، وإما في شدة الفرح؛ إذ تواضع الناس على أن الدموع علامة على إحدى هاتين الحالتين. "وللدموع والبكاء من التأثير ما يفوق أي كلام يمكن أن يقال في مناسبة ما"⁽⁸⁾.

ونجد أن الدموع في آية قرآنية أخرى قد كانت سببا في فقد البصر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَوْسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾⁽⁹⁾.

فبياض العين نحسبه علامة أو إشارة دالة على العمى، وهو يوحي إلى شدة البكاء والحزن، فيعقوب عليه السلام حزن حزنا شديدا صاحبه بكاء عميق على فقد ابنه يوسف، ولعل قوله تعالى: "وابيضت عيناه" قول فيه صورة بليغة، ومؤثرة جدا أكثر مما لو كانت بمجرد وصف الحزن.

إضافة إلى هذه العلامة غير اللغوية نجد علامة أخرى وهي (التولي)، فهذا التولي قد رافق البكاء والحزن، والتولي هو الابتعاد عن الناظرين وكظم للغيط. "فيعقوب" عليه السلام أراد إخفاء ما به من بكاء وحزن عن أعين الناس، وربما كان ابتعادا عن الرياء وإظهارا لشدة الإخلاص، فلو أن "يعقوب" بكى أمام الناظرين، ولم يكظم غيظه، لشك الناظر بأن الباكي متصنع. لذلك قدم الله تعالى في الآيتين التولي على البكاء للدلالة على الصدق والإخلاص⁽¹⁰⁾.

فنحسب أن البكاء والتولي علامتان غير لغويتين أفادتتا تواعدا، وبينتا حال صاحبهما دون أن يلجأ إلى نطق ألفاظ أو عبارات.

ورد ذكر العين في سورة هود -وهي إحدى سور القصص القرآني- ولكن دلالتها تختلف عن سابقاتها إذ يقول تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾⁽¹¹⁾.

فالعلامة الموجودة في هذه الآية هي الازدراء، وهو حسب ابن منظور "الاحتقار والانتقاص والعيب"⁽¹²⁾، فلقد كان قوم نوح يحتقرون الفقراء من المؤمنين ولاشك أن للعين تأثيرا كبيرا جدا ووقعا على النفوس.

تأتي العين مرة أخرى في ثنايا القصص إذ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾⁽¹³⁾.

فهذا الكلام من الله عز وجل إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلى حد تعبير "سيد قطب" أن العين لا تمتد، وإنما يمتد البصر أي يتوجه، ولكن التعبير التصويري يرسم صورة العين ذاتها ممدودة إلى المتاع، وهي صورة طريفة حين يتصورها المتخيل والمعنى وراء ذلك ألا يحفل الرسول (صلى الله عليه وسلم) بذلك المتاع الذي آتاه الله بعض الناس، رجالا ونساء امتحانا وابتلاء، ولا يلقي إليه نظرة اهتمام، أو نظرة استجمال أو نظرة تَمَنٍّ، فهو زائل وشيء باطل، ومعه هو الحق الباقي من المثاني والقرآن العظيم (14).

ولعلنا نخلص إلى أن مد العين -وهو علامة غير لغوية- منهي عنه، فالمرء لا ينظر إلى ما عند غيره ويتمناه، فلربما كان هذا الرزق ابتلاء واختبارا من الله عز وجل.

أما نماذج العين الدائرة الخائفة في سور القصص القرآني فقد وقع اختيارنا على قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ جِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (15).

فدوران العين إشارة بادية على الوجه، وغير لغوية، وهي نظرة المنافقين إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكلهم خوف إلى درجة أن عيونهم تدور دورانا سريعا كالذي يصارع الموت، وعليه صار دوران العين يوحي بالخوف الشديد والاضطراب. وبمجرد رؤيتنا لهذه العين الدائرة -حتى وإن لم يصرح صاحبها بخوفه- نخلص مباشرة أن صاحبها في شدة الخوف.

لا تقف دلالات العين والنظر عند هذه المعاني فحسب، بل تتعداه، إلى معان أخرى. ومن بين هذه المعاني نجد دلالة الأبصار الحائرة في القصص القرآني في قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتُهُمْ هَوَاءً﴾ (16).

إنها علامة تصور لنا حال الكافرين يوم القيامة، فهم من جزاء أفعالهم توقف طرف عيونهم عن الحركة لشدة ما هم فيه من سوء وعذاب يوم القيامة، فعيونهم شاخصة حائرة لا ينطبق الجفن على الجفن يحملقون ولا يرمشون، فارتداد الطرف -وهو تواصل غير لغوي- يوحي لنا بشدة العذاب وسوء العقاب، وفي نفس السياق الذي يصور لنا الأبصار نجد أبصارا خاشعة ذليلة في قوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُفُهُمْ ذَلَّةً وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ (17).

والخشوع الذي نعهه علامة غير لغوية يراه "ابن عاشور" أنه هو: "الخضوع والتذلل، وهو هيئة للإنسان، ووصف الأبصار به مجاز في الانخفاض والنظر من طرف خفي من شدة الهلع والخوف من فظيخ ما نشاهده من سوء المعاملة" (18).

إن هذه العلامة الجسدية هي الخشوع، التي تظهر على الكافر يوم القيامة تبين مدى انكساره وذلك، إذ لا ترتفع عيونه إطلاقاً، بل تحديق في الأرض ويخضع جسده ويسكن لأنه كذب بالحساب، وها هو يلقاه اليوم، ولعلنا نجد أن هذه العلامة (الخشوع) تصور أعمق درجات الذل.

وهناك علامة أخرى ألا وهي زيغ البصر وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ (19).

والزيغ نجده عند "ابن منظور" بمعنى الحيل عن المكان؛ أي أن هذه الأبصار حالت عن مكانها، كما يعرض للإنسان عند الخوف (20).

إن هذه العلامة (زيغ البصر) توحى بحالة نفسية تتمثل في شدة الخوف والكرب والضيق، وكما هو معلوم ما من حالة نفسية إلا وتبدت آثارها على وجه صاحبها عامة وعلى عينيه خاصة.

إن هذه الآيات نزلت لتصف لنا حال المؤمنين، وما وصلوا إليه يوم الخندق. فشدّة الخوف والكرب والضيق بلغت بهم مبلغاً كبيراً لا يطاق ولا يحتمل، حتى زاغت أبصارهم إن تتألب عليهم العدو من كل جهة، وكان المسلمون فئة قليلة، وهذا هو الأمر الذي أدى بهم إلى زوغان أبصارهم (21). وهذه العلامة غير اللغوية نجدها أبلغ أثراً وأشدّ عمقاً مما لو قيل -وبلغ بهم الحزن مبلغاً كبيراً-

2. تعبيرات الوجه:

خلق الله عز وجل الإنسان وفق نظام، والوجه يشكل نظاماً متكاملًا، فكل أجزائه ملتحمة بعضها مع بعض، يؤدي كل منها وظيفته التي خُلق من أجلها، ويعدّ الوجه المرآة العاكسة لما يختلج في النفس البشرية من أفكار، ويدور فيها من عواطف، فبمجرد التأمل في وجه الشخص تكشف ما يفكر فيه، وتؤدي تعابير وجهه دوراً مهماً، فهي علامات مفسرة لحال صاحبها. وقد أعطى الرسول (صلى الله عليه وسلم) قيمة للغة الوجه، وحرص عليها واهتم بها، ومن ذلك قوله (صلى الله عليه وسلم) "ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق" (22).

ولما كان الوجه أول ما يستقبلك وأشرف ما في ظاهر البدن استعمل في مستقبل كل شيء، وفي أشرفه وفي مبدئه فقيل وجه كذا وجه النهار (23).

وبناء على ذلك كانت دواخل الإنسان وأحواله الباطنة أول ما تلاحظ على علامات وجهه. ولقد دل القرآن الكريم على حالات الوجه المتباينة، إذ البياض والإسفار في حال الرضا واطمئنان النفس، والسواد دال على الكآبة يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (24).

فالبياض - وهو علامة غير لغوية - أفضل لون عند العرب، وقد عبّر عن الفضل والكرم بالبياض حتى قيل لمن لم يتدنس بما يعاب إنه أبيض الوجه (25)، في حين كان السواد - وهو أيضا علامة غير لغوية - أهول لون عند العرب، وقد جعل من ملامح الوجه الدالة على الحزن والغم.

فكل من البياض والسواد علامة سيميائية تكشف عما في ضمير صاحب هذا الوجه؛ إذ يرى "سيد قطب" في آيتي آل عمران "أن السياق يرسم مشهدا من المشاهد القرآنية الفائزة بالحركة والحيوية، فنحن في مشهد هول لا يتمثل في ألفاظ ولا في أوصاف، ولكن يتمثل في الآدميين أحياء، في وجوه وسمات قد أشرفت بالنور وفاضت بالبشرة، فابيضت من البشاشة، وهذه وجوه كمدت من الحزن وغيرت من الغم واسودت من الكآبة" (26).

هكذا دلت علامة البياض البادية على الوجه على نعيم أصحابها في حين دلت علامة السواد على هوان أصحابها، في سياق واحد، ومن بين العلامات غير اللغوية الواردة في القصص القرآني والمجسدة لحالات أصحابها و نفسياتهم التي بدت على وجوههم سواء أشقياء أم سعداء قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبْرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ﴾ (27).

فالإسفار والضحك والاستبشار هي علامات غير لغوية تظهر على وجه الإنسان وهي تبين حال المؤمنين الذين رضي الله عنهم، فظهر الإشراق في وجوههم لما علموا حالهم ومصيرهم الذي أعده الله لهم، إنها وجوه مستنيرة مشرقة فرحة، تبين للناظر أنها من أهل الفوز والرضوان، "وهذا الإشراق دل على كرم هؤلاء البررة وما لقوا من جزاء وفاقا على صدقهم" (28)، وفي مقابل هذا الصنف من الناس يوجد صنف آخر صنف الفجار، "فوجوههم مغبرة غبرة الحزن والحسرة، ويغشاها سوء الذل والانقباض، وقد عرفت ما قدمت فاستيقنت ما ينتظرها من جزاء" (29).

فكل من الغبرة والقنرة علامات سيميائية غير لغوية تبدو وعلى وجوه أصحابها، إنه وصف يتعلق بحال وجوه الكفار يوم القيامة، ويظهر مدى تعاستهم وحزنهم لما علموا ما ينتظرهم من سوء العاقبة والخلود في نار جهنم.

فلون الوجه يرمز إلى العديد من الحالات النفسية المتعددة؛ فالبياض ترجمة للسعادة والفرح والسواد عنوان للتعاسة والحزن، هذا الأخير يشبهه المولى عز وجل بالليل المظلم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (30).

وفي تفسير هذه الآية يرى "سيد قطب" أن هذه الوجوه من شدة سوادها كأنما أخذ من الليل المظلم رقعا غشيت بها هذه الوجوه، وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل المظلم ورهبة من رهبته (31).
فهذه الحالة البادية على وجوه الكفار (السواد) "هي خير دليل على شدة الحزن والكآبة والذل، وصار من المتعارف عليه أن سواد الوجه دليل الغيظ والكرب والهم، بل صار علامة دالة على عدم الراحة.

وجّه الخطاب القرآني الكلام إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) واصفا وجهه الكريم بقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِعَاقِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (32).
فابن كثير يقول: "أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يحب قبلة إبراهيم، وكان يدعو وينظر إلى السماء فأُنزل له (قد نرى تقلب وجهك في السماء)" (33).

فتقلب وجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) -وهو علامة غير لغوية- يوحي بحبه قبلة أبيه إبراهيم كما يوحي بأدبه (صلى الله عليه وسلم) فهو بتقليب بصره وكأنه يدعو ربه سرا آملا في تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة.

3. حركات الأعضاء:

لعله يكون من النادر أن يتكلم الشخص كلاما ويبقى جامدا غير متحرك؛ بل غالبا ما يصاحب كلامه حركات لليدين والرأس والقدمين وحتى الأصابع، وتلعب هذه الأعضاء دورا أساسيا ومهما في التواصل البشري غير اللغوي؛ لأن هذه الحركات تعبر تعبيرا بليغا عن المشاعر والانفعالات والعواطف. يسهم الرأس بحركاته المتعددة في الكشف عن سلوكيات الإنسان إذ يمثل دورا مهما في التواصل بين الأشخاص، فكل منا يلوي رأسه ساخرا وينكسه خشوعا أو خجلا، ويرفعه كبرياء وإباء ويقذف به إلى الورا تحديا (34).

وهذا لا يعني أنه لا توجد معان أخرى تفهم من حركات الرأس إذ يقول تعالى: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (35).

فالإنغاص هو تصرف صادر من الكافرين؛ أي أنهم يحركون رؤوسهم استهزاء ويراه ابن كثير "أنه بمعنى التحرك من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى أسفل" (36).

هنا اجتمعت الإشارة -علامة غير لغوية- وهي الإنغاص مع القول -علامة لغوية- وكان هذه الإشارة مساعدة، ومدعمة لهذا الكلام، وربما سبقت القول لشدة إيحائها، فهز الرأس وتحريكه فيه تشكيك كبير لما يقال واستبعاد لحصول الأمر واستهزاء بالقاتل.

هذا فيما يخص الرأس أما فيما يخص اليد فقد تعددت الآيات التي ذكرت هذا العضو ولعل اليد من أهم الأعضاء الجسمية التي تساهم أساسا في اللغة الإشارية، وبشبه دورها في ذلك دور اللسان في اللغة المنطوقة، إذ يرى الجاحظ "أن اللسان إنما هو في منافع اليد والمواقف التي فيها، والحاجات التي تبدلها، فمن ذلك حظها وقسطها من منافع الإشارة، ثم نصيبها في تقويم القلم، ثم حظها في التصوير، ثم في إيصال الطعام والشراب إلى الفم، وفي أصناف الدفع عن النفس والنقر بالعود وتحريك الوتر وحظها في العد، ويستطرد الجاحظ قائلا: "وقد اضطر بوافي الحكم بين العقد والإشارة" (37)، فكل حركة تصدر عن اليد يمكن اعتبارها إيماء يحمل دلالة معينة.

إن اليد هي الأداة الأهم للتواصل عند الصم والبكم، وهي كذلك تستعمل في حالات التواصل عن بعد في المسافات أو في الأماكن المكتظة والصاخبة، أو لدى أصحاب العمال الذين يتعارفون على إشارات معينة بغية إخفاء قصدهم عن غيرهم أثناء الحديث (38).

لقد برزت اليد عضوا مهما في التواصل -غير اللغوي- في قصص القرآن الكريم ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (39).

فمريم هنا لم تتكلم، وإنما أشارت بيدها، فاليد هنا قد نابت عن اللسان، وكان مريم تعلم قومها بأن يكلموا عيسى (عليه السلام)، ولقد فهموا قصدتها وردوا على إشارتها قائلين كيف نكلم من كان في المهد صبيا، فغاية إشارتها قد وصلت إلى قومها وفهموها وردوا عليها، فحركة اليد تمتلك نظاما دلاليا تواصليا غير لفظي يتواصل به الناس، فاليد تستطيع أن تنطق بعشرات المعاني مثل النداء والطلب والقبول والرفض والتهديد والوعيد والمصافحة عند اللقاء والتوديع عند الفراق (40).

لقد تعددت إشارات اليد في القرآن الكريم، وبالتالي تعددت دلالتها يقول تعالى: ﴿وَأَحْيَطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (41).
فحركة تقلب الكف علامة غير لغوية توحى بالندم الشديد، إذ يرى ابن عاشور "أن تقلب الكفين كناية عن الندم والحسرة، فإن من عظمت حسرته يصفق إحدى يديه على الأخرى، وقد يمسح إحداها على الأخرى" (42).

وعليه صارت هذه الإشارة غير اللغوية (تقلب الكفين) دلالة على الحسرة والندم والجهد المبذول سدى بلا نتيجة ، بمجرد القيام بهذه العلامة يفهم ندم الشخص وحسرتة ،حتى وإن لم يتفوه ولو بكلمة.
وفي مواضع أخرى تجمع اليد مع أعضاء جسمية مختلفة كاليد مع الفم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (43).
إن رد اليد إلى الفم يحمل دلالة الغيظ؛ إذ يرى سيد قطب أنهم ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل من يريد تمويج الصوت لسمع عن بعد بتحريك كفه أمام فمه ، وهو يرفع صوته ذهابا وإيابا، فيتموج الصوت ويسمع، إذ يرسم السياق هذه الحركة التي تدل على حصرهم بالتكذيب والشك، وإفحاشهم في هذا الجهر وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق إمعانا منهم في الجهر بالكفر (44).

فهذا السلوك الحركي المركب هو علامة مرئية -غير لغوية- موحية بشدة الغضب.
تأتي اليد في مواضع أخرى للدلالة على القوة ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (45).

فأولي الأيدي كناية عن شدة القوة والبطش، وقد وصف الله أنبياءه بهذه الصفة لأنهم كانوا أقوياء، ولأنه كان من المعروف عند العرب استعمالهم اليد للدلالة على الشدة والقوة في مقابل هذه اليد القوية هناك اليد الصاغرة الذليلة المقهورة، يقول تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (46).

وعلى حد تعبير "الخطيب عبد الكريم" فإن أخذ الجزية من أهل الكتاب وأداؤهم لها على هذا الوجه الذي يؤديها عليه في ذلة وصغار، هو في الواقع ليس عن دافع من التعالي والكبر من المسلمين، وإنما هو إثارة لدوافع الإنسانية عند هؤلاء الذين يؤدون الجزية، ولتحريك الرغبة فيهم إلى الخلاص من هذا

الوضع المشين، وذلك بمراجعة معتقدتهم من جهة، والنظر في وجه الدعوة التي يدعوهم الإسلام إليها من جهة أخرى، وهذا إن فعلوه ، فإنه لا بد أن يصحح عقيدتهم، ويفتح عقولهم وقلوبهم للدين الحق (47).

فهذه الإشارة الجسدية غير اللغوية تحمل في داخلها دلالة واضحة على القهر لدافع الجزية للذي رفض الخضوع لأمر الله، فهذا الشخص منكسا خافض الرأس يمد يده أمامه حاملا فيها مال الجزية ليدفعه للمسلمين وهو صاغر ذليل.

لا تقف دلالات اليد ومعانيها عند هذا الحد فحسب، بل تتعداه لتوحي بإيحاءات أخرى، ومن هذه الإيحاءات دلالة البخل وذلك في قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (48).

وقبض اليد كناية عن الشح، وهو وصف ذم لدلالته على القسوة لأن المراد الشح على الفقراء (49).

وهذه العلامة المتمثلة في قبض اليد -وهي علامة غير لغوية- اقترنت بدلالة الشح وهذا الأخير نص الله (عز وجل) عليه وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (50).

فالغل يعد إشارة غير لغوية موحية بالبخل، وفي الوقت نفسه يوحي البسط بالتبذير والإسراف وكلاهما منهي عنه سواء البخل أم التبذير، فالوسطية هي المطلوبة.

لقد استعارت الجماعة العربية لفظ اليمين لليد التي يتوصل بها الإنسان دائما لقضاء حاجاته، والقيام بأفعاله ، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ (51).

فاليمين هنا دلالة على اليد المساعدة لصاحبها والقائمة بحاجاته، كما استعمل العرب لفظ اليمين للحلف وأصل ذلك اليد اليمنى ، لأنهم كانوا يبسطون أيديهم -أيمانهم- إذا حلفوا أو تحالفوا (52).

ونجد أن العرب تتفاعل باليمين وتتشاءم بالشمال فأصحاب اليمين هم السعداء الفائزون الناجحون، وأصحاب الشمال هم الأشقياء الفاشلون.

ومن اليد ودلالاتها ومعانيها ننتقل إلى الأصابع التي ورد ذكرها في القصص القرآني، وحملت العديد من الدلالات ومن بينها عضّ الأصابع للدلالة على الغيظ يقول تعالى: ﴿هَأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأُتَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (53).

"فسيد قطب" يراها صورة كاملة السمات ناطقة بدخائل النفوس، وشواهد الملامح، تسجل المشاعر الباطنة والانفعالات الظاهرة، والحركة الزاهية الآبية (54).

إن هذه العلامة المتمثلة في عضّ الأنامل قد حملت دلالة الغيظ الشديد، فالكفار ولشدة حقدهم على المسلمين يريدون أن يؤذوهم، ولكن عجزهم عن ذلك وعدم قدرتهم وعدم تمكّنهم أوجد في نفوسهم حسرة كبيرة لم يستطيعوا كتمها وإخفاءها ، بل ظهرت على شكل غضب كبير تجسّد في عضّهم الأنامل لإفراغ شحنات الغضب التي امتلأت بها صدورهم. ومن بين الدلالات التي تحمل علامة جعل الأصابع في الآذان نجد دلالة الخوف الشديد؛ إذ يقول عز من قائل: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (55).

والمعروف هو وضع الأنامل في الآذان، إلا أنهم وضعوا أصابعهم يقول الشعراوي: "وهؤلاء المنافقون لم يضعوا الأنامل، ولكن كما قال سبحانه وتعالى (يجعلون أصابعهم في آذانهم) ولم يقل أناملهم وذلك مبالغة في تصوير تأثير الرعد عليهم، فكأنهم من خوفهم وذعرهم يحاول كل واحد منهم أن يدخل كل إصبغه في أذنه، ليحميه من هذا الصوت المخيف، فكأنهم يببالغون في خوفهم من الرعد" (56).

فوضع الأنامل في الآذان وهي علامة خارجية ظاهرة ، تشير إلى الرعب الشديد من الصواعق ولربما كان استعمال لفظ الأصابع على الرغم من أن المستعمل في هذه العملية الأنامل لهو دلالة ومبالغة شديدة في إدخال الأصابع في الآذان طلبا للانسداد العميق وعدم السماع وذلك لشدة الخوف.

5. هيئات الجسم:

تخضع كل هيئات الجسم التي يتخذها جسم الإنسان لثقافة المجتمع وأعرافه، كما يساعد الموقف في تحديد هيئة الجسم وتشارك الحالة النفسية للفرد وجنسه في تشكيل هيئات الجلوس والقيام، ولقد تضمن القصص القرآني بعضا من الآيات التي تكلمت عن الجسم وأوضاعه، ويتخذ القيام والقعود والجلوس حالات من حالات التواصل غير اللغوي، وقد ذكر الله (عز وجل) القيام في سورة الكهف إذ يقول: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُو مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ (57).

فهذه الحركة غير اللغوية -القيام- قد تكون حقيقته بأن وقفوا بين يدي ملك الروم المشرك معلنين فساد عقيدة الشرك، ويحتمل أن يكون القيام مستعارا للإقدام على عمل عظيم، وللاهتمام بالعمل أو القول، تشبيها للاهتمام بقيام الشخص من قعود للإقبال على عمل ما (58).

وقد ذكر القيام في مقام آخر إذ يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (59).

فالقيام هنا دلالة على النهوض، وتتعدد دلالات القيام فأحيانا يقترن بعدم الثبات والاستقامة، وأحيانا يكون معبرا عن الدهشة، وأحيانا يكون لنطق الحقيقة وأحيانا من أجل العبادة، وكل هذه الدلالات تمثل جانبا من جوانب التواصل غير اللغوي.

لقد اقترن لفظ القيام بالعود في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (60).

وعليه فالمؤمن مطالب بذكر الله (عز وجل) في حالة القيام والعود والاضطجاع، وهناك قعود آخر منبوذ ويتجسد في قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُورًا﴾ (61).

هذه العلامة غير اللغوية -وضعية القعود- توحى بالندم ، وذلك جراء الشرك، وعليه يظهر القعود على أنه إحدى العلامات التواصلية غير اللغوية والتي يحمل العديد من الدلالات ، إذ قد يكون للعبادة وقد يكون دالا على الكسل والخمول ، وقد يكون رمزا على الذل والخذلان ، وقد يكون دليلا على الراحة والسعادة.

ومتلما يتخذ القيام والعود العديد من الدلالات ، فإن الأمر نفسه يقال بشأن الاستلقاء والنوم ومن النماذج القرآنية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (62).

فقوله تعالى: "لجنبه" إشارة إلى الاستلقاء إذا مسه الضر دعا الله في كل الهيئات سواء مستلقيا أم قاعدا أم قائما، وبمجرد انكشاف الضر يمر كأن لم يدع إلى ضر مسه، فالإنسان بطبعه لا يحتمل المرض ولا يطيقه، ولأنه يؤرقه فهو يدعو ربه حتى وهو يستعد للنوم؛ أي أن المرض اضطر الإنسان اضطرارا وجعله يتفكر في ربه ويناجيه ويدعوه في كل جلسة و قعدة واستلقاء.

وبعد المشي أحد الحركات الجسمية التي نقف من خلالها على شخصية الإنسان وحالته النفسية، ولقد حدد المهتمون بدراسة السلوك الإشاري البشري ثلاثة أنواع للمشية، السريعة والبطيئة والمتوسطة (63). ونلاحظ تميز كل إنسان أو كل شخص بمشية تفرقه عن الآخرين، ولقد صور القرآن الكريم هيئات متباينة للمشي ذات دلالات مختلفة ومن بينها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (64).

وهذا النوع من المشي منهي عنه ، لأن فيه تكبرا وغطرسة. ومشية المرح تعد علامة غير لغوية توحى بغرور صاحبها وهناك مشي آخر لا يقل خطورة عن سابقه ويتجلى في قوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَاءً بِنَمِيمٍ﴾ (65).

والمشاة بالنميمة هو الذي ينم بين الناس، ووصفه بالمشاة للمبالغة، والمشي استعارة لتشويه حاله بأنه يتجشم المشقة لأجل النميمة (66).

فالمشي والذي نعده علامة غير لغوية يساهم في التواصل، إذ من خلال مشية الشخص نكشفه فأحيانا يكون المشي دليلا على التكبر، وأحيانا يدل على طلب الرزق، وأحيانا يكون للاعتبار والنظر في صروف الدهر والأمر السابقة، ويظهر هذا في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ (67).

إذ يرى "سيد قطب" أن العرب المخاطبين كانوا يمشون في مساكن عاد وشمود، ويمرون بالآثار الباقية من قرى قوم لوط، والقرآن يستتكر أن تكون مصارع هذه القرون معروضة لهم، وأن تكون مساكن القوم أمامهم، يمرون عليها ويمشون فيها، ثم لا تجيش قلوبهم ولا تهتز مشاعرهم، فوجب على الإنسان أن يعتبر من الأوامر السابقة وما جرى لها (68).

ويأتي السير مرادفاً للمشي في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ﴾ (69).

إن العلامة الجسدية الواردة في هذه الآيات -السير- تحمل نفس دلالة المشي السالفة الذكر وهذه الدلالة هي دلالة النظر والاعتبار؛ إذ اقترن السير بالنظر والتفكر في القرون السابقة، كما ذكر السير في آيات أخرى ولكنه كان ليلا أي سرى وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (70).

والذي نفهمه من هذه العلامة غير اللغوية "السير ليلا" هو دلالة التخفي والكتمان، وربما كان لشدة الحر وتقادي الشمس الحارقة، وربما كان لإخفاء أمر السفر والرحيل ومن العلامات التواصلية غير اللفظية نجد الفرار إذ يقول تعالى: ﴿قُلْ لَن يَفْعَلَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (71)، وقوله أيضا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (72).

فالفرار وهو علامة جسدية غير لغوية نفهم من ورائه العديد من الدلالات فتارة يكون رمزا على الهروب، وتارة يكون للتباعد، وتارة يكون لاشتغال المرء بنفسه وفي نفس السياق ونفس الهيئات الجسمية نرى تولى الدبر إذ يقول تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَىٰ وَإِن يُفَانِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ (73)، ونفس الأمر بالنسبة لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رآها تهتَّتْ كأنها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ (74).

ففي الآية الأولى نجد تولية الدبر تحمل دلالة الانهزام المصحوب بالفرار ، في حين يرى "سيد قطب" في شأن الآية الثانية "أن موسى عليه السلام قد أدركته طبيعته الانفعالية ، وأخذته هزة المفاجأة التي لم تخطر له ببال، وجرى بعيدا عن الحية دون أن يفكر في الرجوع! وهي حركة تبدو فيها دهشة المفاجأة العنيفة في مثل تلك الطبيعة الشديدة الانفعال"(75).

فتولية الدبر لها العديد من المعاني والدلالات وخاصة دلالة الخوف والانهزام والهروب، وهذه العلامة نجدتها تترك تأثيرا عميقا في نفس السامع كما أنها صورة متحركة بادية أمام ناظره. ومن الأوضاع والهيئات الجسمية الحاملة لدلالات كثيرة نجد الهرع الذي يعرفه ابن منظور بقوله: "الهرع والهراع والإهراع شدة السوق وسرعة العدو" (76).

يقول تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (77).

فالهرع يعد علامة مرئية غير لغوية توحى بدلالة الإسراع الذي يمكن من حصول الشيء المرغوب فيه.

وكمرادف للهرع نجد الاستباق وقد ذكر مرات عديدة في القرآن الكريم ولاسيما في القصص القرآني إذ يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (78).

و الاستباق حسب "ابن عاشور" هو افتعال من السبق وهو هنا بمعنى التسابق، والمراد: الاستباق بالجري على الأرجل وذلك من مرح الشباب ولعبهم (79).

فإخوة يوسف ادعوا أنهم ذهبوا للعب والمرح تاركين يوسف الذي أكله الذئب كما قالوا.

قال تعالى في سورة يوسف أيضا: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (80).

فلفظ استبقا يوحي بالسرعة الشديدة والجري والتسابق إلى الباب، فكلاهما يريد الوصول إلى الباب بل ويريد أن يسبق الآخر في الوصول إلى الباب، وقد وصل يوسف (عليه السلام) وكان الأسبق إلى الباب إلا أنها لحقته وأمسكت قميصه من خلفه فقطعته.

وفي السياق نفسه يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (81).

ويرى "الشعراوي" أنه تسابق في الوصول إلى الخيرات ، والتسابق إلى الخيرات ، إنما يكون بهدف النجاح في الابتلاء (82). فهذه العلامة المرئية (الاستباق) تحمل دلالة الإسراع في الجري، إما من أجل اللهو واللعب وإما من أجل الهروب وإما من أجل الفوز بالخيرات.

وعموماً فإن كل الإيماءات وإشارات العين وتعبيرات الوجه وحركات الأعضاء وهيئات الجسم التي نعدّها كلها علامات غير لغوية تسهم وبشكل كبير في تواصل الفرد مع غيره من بني جنسه، فالعين تكشف عما يدور في نفس صاحبها، والوجه هو المرآة العاكسة لخلجات النفس ، واليد هي المعين والمساعد في إيصال الأفكار إلى الآخر، وأوضاع الجسم من مشي وسرى وفرار واستباق ونوم واستلقاء كلها تبين شخصية صاحبها وتكشف لنا ما يدور في نفسه وما هو بصدده إبلاغه للآخرين.

الهوامش:

- (1) أحمد محمد الأمين موسى، الاتصال غير اللفظي في القرآن الكريم، دار الثقافة والإعلام، الشارقة، ط1، 2003، ص40.
- (2) مريم / 27-29.
- (3) آل عمران / 41.
- (4) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، دار المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ص 78.
- (5) بني يونس ومحمد محمود، سيكولوجيا الواقعية والانفعالات، دار المسيرة، عمان، الأردن، ط1، 2007، ص 340.
- (6) ينظر: كريم زكي حسام الدين، الإشارات الجسمية، دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، ص 174.
- (7) التوبة / 92.
- (8) القرطبي محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2006، 421/14.
- (9) يوسف / 84.
- (10) ينظر: الرازي محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، 154/18.
- (11) هود / 31.
- (12) ابن منظور، لسان العرب، 14 دار صادر، بيروت، المجلد 16، ط1، 1997، 356/.
- (13) طه / 131.
- (14) ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2154/4.
- (15) الأحزاب / 19.
- (16) إبراهيم / 43.
- (17) القلم / 43.
- (18) ابن عاشور التحرير والتوير، 16 دار سحنون للنشر و التوزيع، الجزء 16، (د،ت)، /144.
- (19) الأحزاب / 10.
- (20) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 432/8.
- (21) ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، 2837/5.
- (22) الترمذي محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تح: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، كتاب البر والصلة، باب طلاقة الوجه وحسن البشر، حديث رقم 1970، 374/4.
- (23) ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح/ محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص 513.
- (24) آل عمران / 106-107.
- (25) ينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص 66.
- (26) سيد قطب، في ظلال القرآن، 455/1.
- (27) عبس / 38-42.
- (28) ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، 3834/6.

- (29) نفسه، 3834/6.
- (30) يونس / 27.
- (31) ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، 1779/3.
- (32) البقرة/ 144.
- (33) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2005، 198/ 1.
- (34) ينظر: كريم زكي حسام الدين، الإشارات الجسمية، ص 165.
- (35) الإسراء/ 51.
- (36) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 58/3.
- (37) الجاحظ، الحيوان، ص 40.
- (38) ينظر: أحمد محمد الأمين موسى، الاتصال غير اللفظي في القرآن، ص 22.
- (39) مريم/ 29.
- (40) ينظر: كريم زكي حسام الدين، الإشارات الجسمية، دراسة لغوية نظام استعمال أعضاء الجسم في التواصل، ص 78.
- (41) الكهف/ 42.
- (42) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 72/15.
- (43) إبراهيم/ 9.
- (44) ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، 2090/4.
- (45) ص/ 45.
- (46) التوبة/ 29.
- (47) ينظر: الخطيب عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآني، دار الفكر، بيروت، (د، ت)، 736/10.
- (48) التوبة/ 67.
- (49) ينظر: ابن عاشور، التبرير والتحرير والتنوير، 144/10.
- (50) الإسراء/ 29.
- (51) طه/ 17.
- (52) ينظر: كريم زكي حسام الدين، الإشارات الجسمية، ص 193.
- (53) آل عمران/ 119.
- (54) سيد قطب، في ظلال القرآن، 452/1.
- (55) البقرة/ 19.
- (56) الشعراوي حمد متولي، تفسير الشعراوي، قطاع الثقافة، القاهرة، ط3، 1991، ص 23.
- (57) الكهف/ 14.
- (58) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 29/15.
- (59) البقرة/ 275.
- (60) آل عمران/ 191.
- (61) الإسراء/ 22.
- (62) يونس/ 12.
- (63) ينظر: كريم زكي حسام الدين، الإشارات الجسمية، ص 209.

- (64) الإسراء / 37.
- (65) القلم / 11.
- (66) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 68/29.
- (67) طه / 128.
- (68) ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، 2815/5.
- (69) آل عمران / 137.
- (70) هود / 81.
- (71) الأحزاب / 16.
- (72) عبس / 34.
- (73) آل عمران / 111.
- (74) النمل / 10.
- (75) سيد قطب، في ظلال القرآن، 2629/5.
- (76) ابن منظور، لسان العرب، 369/8.
- (77) هود / 78.
- (78) يوسف / 17.
- (79) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 35/12.
- (80) يونس / 25.
- (81) البقرة / 148.
- (82) ينظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، ص 710.